الفصل الثاني

غرس قيمة الطاعة في نفوس أطفالنا

تُعد التربيَّة الخُلقيَّة من أهم الشروط للوصول إلي التكيُّف المنشود ، وذلك لأنَّ المبادئ الأخلاقيَّة السَّامية ، تُجنِّب الفرد الوقوع في الزلل ، وتُبعده عن الخطأ ،ومن هنا فهي تُخفف من حِدة التوتُّر لدي الفرد ، الذي ينتج عنه الكثير من الأضرار، وما قد يترتب علي ذلك من تردي في شخصية الفرد من خلال إحساسه بالذَّنب. وممَّا لا شك فيه أنَّ الفرد يشعر بالأمان النفسي،عندما يسلك طريقاً مُعيَّناً مقبولاً ، ولابدّ من أن يكون هذا الطريق مشتقاً من قانون أخلاقي يستند إلي تعاليم الدين.

ولهذا.. فإنَّ أهم ما يجب أن يعتني به رجال التربيَّة ، هو دراسة أفضل الوسائل التي تستطيع بها الأسرة والمدرسة مُساعدة الأطفال والناشئة علي أن يجدوا لأنفسهم نظاماً من القيم والمبادئ الخُلقيَّة ، يستمدون منه موجهات لسلوكهم، واتجاهاتهم الفكريَّة. وهذا النظام هو الركيزة الأساس لعملية التكيُّف باعتباره المُحدِّد للسلوك والموجه للفكر. ويأتي في مقدمة القيم الأخلاقيَّة والنفسيَّة ، قيمة الطاعة،تلك القيمة التربوية المهمة في حياة الأفراد.

● كيف تصبح الطاعة قيمة تربوية ؟

أهم هدف لدي أيّة أُمة من الأمم،أو شعب من الشعوب هو تكوين المجتمع السليم، الذي يقوم علي أسس سليمة ومتينة ، ودعائم وركائز قوية ، لا يعتريها وهن أو ضعف أو انحلال ، وذلك حتي يكون المجتمع نموذجاً ومضرباً للأمثال ، ولكي تكون الطاعة قيمة تربوية بالنسبة للأفراد في مستهل حياتهم ، فيشبوا عليها وتكون جزءاً من تربيتهم، لابدّ من توافر بعض الأسس المهمة،مثل:

١. توافر جوّ من الصراحة والثقة:

إنَّنا نعتبر الصراحة هي خير طريقة للتربية الصحيحة والسَّويَّة،لذا لابدّ أن يسود العلاقة بين الآباء والأبناء جوّ من الصراحة القائمة علي الصدق في الأقوال والأفعال، والثقة التَّامة بين جميع الأطراف. ويجب أن نبث في الفرد منذ صِغره الاعتداد بالنفس والثقة بها ، فالطفل إذا لم يكن مقتنعاً بأي أمر من الأمور، يجب أن يُصارح والديه

بوجهة نظره في هذا الأمر قبل طاعته ، إذ يجب أن يكون مقتنعاً بقيمة هذا الأمر، وفائدته بالنسبة له وبالنسبة لأسرته التي يعيش فيها .

ومن هذا المنطلق يجب تمكين الأبناء من مناقشة ما يرون أنَّ من الواجب مناقشته، وإبداء رأيهم ووجهة نظرهم ، وذلك في حدود قدرتهم ومستوي نضجهم ، دون الخروج علي المألوف والمتعارف عليه وفي حدود الأدب واللياقة ، وعدم كسر حاجز الاحترام بين الصَّغير والكبير.

والثقة بين الآباء والأبناء هي أغلي ما تُقدِّمه الأسرة لأبنائها،إذ أن التوافق بين الزوجة وزوجها ، في الآراء وفي الأهداف ، وتعامُلها مع بعضهما البعض ومع أبنائهما باحترامٍ في جوٍ تسوده الصراحة المُطلقة هو المُحقِّق للثقة الكاملة بين جميع أفراد الأسرة.

٢ ـ شعور الأطفال والناشئة بالأمن:

إنَّ دور الوالدين في التكوين السَّوي هو الهدف الأسمى في تربية الأطفال، وهو الذي يُضفي جواً من الحُبِّ والحنان ، وشعوراً بالتكامل بين جميع الأفراد. وإحساس الطفل بالأمن والأمان والطمأنينة يجعل العلاقة بين الطفل وبين مصدر السلطة علاقة ودّ وتفاهم ، ممَّا يجعله أكثر تقبُّلاً لأوامر الوالدين.

أمَّا بالنسبة للطفل الذي لا يشعر بالأمن والطمأنينة ، والذي يحس بأنَّ كيانه في البيت مُهدَّد علي الدوام ، ويعيش في توتُّر وقلق زائدين ، فإنَّه عادةً ما يتقبَّل أوامر الوالدين وينفذها بغير اقتناع خوفاً من أن يؤدي عدم تقبُّله لهذه الأوامر ومعارضته لها إلي تعرُّض كيانه لمزيدٍ من الخطر.

وقد يؤدي عدم شعور الطفل بالأمن والأمان في الأسرة إلي سلوك طرق غير سويَّة، ممَّا قد يدفعه إلي عدم طاعة الوالدين والوقوف في وجههما فيحدث ما تُحمد عقباه. ولقد قرَّر علماء النفس المحدثون أنَّ وجود الأمن العاطفي شرط أساس وضروري لانتظام الحياة الاجتماعيَّة للطفل في مراحل حياته الأوَّلي ، واستقرار مشاعره الاجتماعيَّة ، وأنَّه إذا فَقَد الحُبّ في هذه المرحلة فإنَّه يفشل في التفتُّح والازدهار نفسيَّا وجسميَّا وعقليَّا.

٣. الاعتراف بنواحي النقص والتقصير:

غالباً ما تكون الطاعة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باعتراف الفرد بجوانب النقص والقصور في نفسه ، لأنَّ الفرد إذا لم يعترف في قرارة نفسه بجوانب النقص والقصور، فإنَّه يجد صعوبة في الخضوع لسلطة الآخرين ، وبالتالي لن يشعر في هذه الحالة بالحاجة الحقيقية لغيره من النَّاس ، وعندئذ لا يُطيع غيره ، حيث يري في نفسه الكمال المُجرَّد عن الخطأ، وأنَّه في مركز أفضل منهم، فتتعالي نظرته عمَّن حوله،ويشعر بالإعجاب والفخر في ذاته ويركبه الغرور.

وطالما أنَّ الطفل يعرف حدود قدراته ، ويُدرك ضعفه ونقائصه ، فإنَّه يجد في طاعة الوالدين أمراً سهلاً ومقبولاً ، لأنَّه يعلم أنَّ والديه يعرفان أكثر منه ، وأنَّهما الوحيدان اللذان يُدركان مصلحته. ومن الأمور المهمة أن يكون اعتراف الطفل بضعف قدرته واقعياً ، وأنَّ ضعفه ــ بالمقارنة إلي قدرة والديه ــ لا يعود إلي عيب أصيل فيه، بل هو راجع إلي مرحلة النمو التي يمرّ بها.

- **جوانب سلبيَّة متصلة بمفهوم الطاعة :**

قد تكون الطاعة في بعض الأحيان مظهراً من مظاهر الاضطراب النفسي ،أو التكيُّف غير السَّوي ، ومن الأمثلة علي هذه الجوانب السَّلبية ما يلي:

١. استخدام الطاعة للسيطرة علي الغير:

قد يكون الطفل مُطيعاً لما يُلقي عليه من أوامر لأبعد الحدود، وفي هذه الحالة ينتظر الطفل من الآباء أو الكبار المُحيطين به الأوامر، ليقوم بتنفيذها علي الفور، دون أدني مناقشة أو إبداء رأي فيها، ويكون من نتيجة ذلك أن يجد الآباء أنفسهم تحت رحمة الطفل، لأنَّهم سيضطرون إلي الوقوف بجانبه باستمرار لتوجيهه، وإصدار الأوامر إليه في مختلف المواقف التي يمرّ بها.

٢. استخدام الطاعة للإساءة إلي الغير:

كثيراً ما يلجأ الأطفال قليلو الحيلة، ومحدودو القدرة والإمكانات إلي استخدام أسلوب الطاعة العمياء وتنفيذ أوامر الآباء والكبار المُحيطين بهم، حتي يضفوا علي أنفسهم بعضاً من الصفات الحميدة ، كأن يُقال عنهم، مثلاً :إنَّهم مطيعون، وذلك حتي يظهر الآخرون في نفس الوقت وكأنَّهم غير مطيعين. وتعد الطاعة في هذه الحالة أسلوباً من الأساليب غير المباشرة للإساءة إلي الغير، والتقليل من شأنهم والتهوين من أمرهم، وهي إحدى مظاهر الانتهازية والوصولية.

٣. الطاعة والتقمُّص المُغالي فيه:

حيث يُعد من الصور السَّلبيَّة للطاعة كُل ما كان قائماً علي التقمُّص الزائد، فالطفل عن طريق التقمُّص يُقلد الآباء والمُحيطين به، الذين يُحبَّهم ويحترمهم ويتأثَّر بهم. وهذا التقمُّص هو الذي يُحدِّد ميول وسلوك الطفل في المستقبل إلي حدٍّ كبير، إذ أنَّه عن طريق التقمُّص يتشرَّب الكثير من القيم والمبادئ الاجتماعيَّة والاتجاهات والمعايير السلوكيَّة.

والواقع أنَّ قيم الطفل ومبادئه واتجاهاته ومعاييره السلوكيَّة، إذا كانت متوقفة كلية علي تقمُّص شخصية أحد الأفراد في مركز السَّلطة، فإنَّ الطفل في هذه الحالة يفقد فرديته وشخصيته المستقلة، وتصير طاعته للأوامر ليست عن قناعةٍ، ولا عن إيمان بفائدتها ولكنَّها تُعد مظهراً من مظاهر فقدان الشخصيَّة المستقلة.

● التربية .. وتنمية قيمة الطاعة:

للتربية أساليبها المُتعدِّدة، التي تستطيع من خلالها تنمية وتحقيق الصفات التي تُميِّز الإنسان، فإذا ما تحقَّقت هذه الصفات، وصل الفرد إلي مستوي مناسب من الصحَّة النفسيَّة.

ولكي تتحقَّق قيمة الطاعة بجوانبها المُتعدِّدة المفيدة،ينبغي توافر عدد من الشروط في الأمور التي يجب إطاعتها وتنفيذها،وهي:

- ألاَّ تؤدي الأوامر إلي الإضرار بكيان الطفل، أو تعريضه للخطر في الحاضر أو في المستقبل، إذ أن المفروض في الأوامر أن تُحقِّق مصلحة الفرد، كما تُحقِّق مصلحة الجماعة في نفس الوقت.

- ألاَّ يكون في الأوامر لبس أو غموض، وتكن مُصاغة بأسلوبٍ ولُغةٍ يفهمها الأطفال والناشئة، حتي يمكن تنفيذها.

- أن تكون مقنعة، وتجد لدي الطفل تقبُّلاً، فقد تكون الأوامر سليمة وواضحة، ولكنَّها غير مقنعة، لأنَّ الاقتناع يتمثَّل في استثارة الطفل، وتشجيعه علي الطاعة.

- الجوّ الهادئ المتزن إذا ساد الأسرة، فإنَّ طاعة الأطفال والناشئة للأوامر تكون أمراً عادياً. وفي هذه الحالة تكون الطاعة سبيلاً لتدعيم نموّ الطفل ونضجه، أمَّا الطاعة القائمة علي القسر، واستخدام أساليب العقاب، فإنَّ قيمتها التربوية غالباً ما تكون محدودة، وعادةً ما يكون ضررها أكثر من نفعها.